باب الفقه في احكام الدين

كلمة ثانية في أهل الذمة

هذه المقالة منقولة عن الجزء الثالث من تاريخ (أشهر مشاهير الاسلام) لرفيق بك العظم وهو مخت الطبع . وله كلمة أخرى في حسن معاملة الاسلام لاهل الذمة في الجزء الثاني من الكتاب . وقد أورد هذه الكلمة بمناسبة كتاب من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص يوصيه فيه باهل العهد والذمة ويذكره بوصية النبي بهم عامة وبالقبط خاصة ومن ذلك حديث « من ظلم معاهدا او كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة »

هذا الكتاب يمثل لنا سيرة عمر بن الخطاب مع أهل الذمة ويبين شدته على العمال في منعهم عن ايذاء أهل الكتاب اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وعملا بامره ومن تكون هذه سيرته مع أهل الذمة أفيعقل ان يريد بهم اذى بقول أو فعل ؟ كلا ان العقل والبديهة يرفضان نسبة أي قول أو فعل اليه يشتم منه ولو رائحة الجفاء فضلا عن امتهان الذمي أو ظلمه .

واذ علم هذا فالذي يدعو الى العجب هو غفلة نقلة الاخبار ورواتها عن

مقاصد عمر (رض) التي هي مقاصد الشرع الاسلامي الذي جاء للتأليف بين القلوب وعدم استحيائهم من جمع المتناقضات من الاخبار ونقلهم الموضوعات منها بلا تمحيص لصحيحها من كاذبها وبدون تروّ في النافع والضار منها

كتبنا في الجزء الثاني فصلا عن أهل الذمة نقلنا فيه رواية لابن الجوزي في انّ عمر تقدم الى أحد عماله بختم رقاب أهل الذمة بالرصاص (١) وأبنا ثمة وجه الضعف في هذا الخبر وعجبنا من مثل ابن الجوزي كيف ينقل مثل ذلك الخبر مع انه ليس في الدرجة التي تؤلم النفس اذ لو صح لحمل على قصد سياسي أو اداري على تعيير المتأخرين يراد به ضبط احصاء أهل الجزية من الذميين لامتهانهم اقتداء بالدول الفاتحة قبل الاسلام كالرومان والفرس الذين ثبت انهم كانوا يضربون على الرعية الجزية وربما كانت هذه العادة متبعة عندهم في احصاء أهل الجزية وقد زاد عجبنا اضماقاً الآن اذ رأينا هذا الخبر في الخطط نقله صاحبها المقريزي عن ابن عبد الحكم بزيادة أخر بها ان تكون محض افتراء على عمر بن الخطاب رضي الله عنه واذ قلنا بوهن الرواية الاولى في جانب العقل وهي لأحد حفاظ الحديث فما أحرانا بتكذيب الرواية الثانية . واليكها بنصها مع الزيادة التي أوردها المقريزي قال :

كان عمرو بن العاص يبعث الى عمر بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج اليه وكانت فريضة مصر لحفر خلجها واقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع

(١) المراد بختم رقاب أهل الذمة بالرصاص هو حمل طوق فيه علامة من الرساس كما في بعض التواريخ

جزائرها مائة ألف وعشرين ألفا (أي من المال) معهم الطور والمساحي والاداة يعتقبون ذلك لا يدعون ذلك صيفا ولا شتاء . ثم كتب اليه عمر ان تختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص ويظهروا مناطقهم ويجزوا نواصيهم ويركبوا على الاكف (جمع أكاف وهو البردعة) عرضاً ولا يضربوا الجزية الاعلى من جرت عليه المواسي ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ولا يتشبهوا بالمسلمين

فانظر أيها العاقل الى هذا الكتاب وقابله بكتاب عمر الذي يوصي فيه عمرو بن العاص بأهل الذمة هل تجد بينهما التئاماً بالوجهة ؟ أم بينهما من البون البعيد ما بين الحق والباطل . وقد أوضحنا في الجزء الثاني ضعف أمثال هذه الاخبار بما فيه الكفاية وانما عدنا اليها الآن لامر ظهر لنا بعد البحث والروية : وهو ان واضعي هذه الاخبار انما ألجأهم لوضعها أمران

الامر الاول ان الشؤون الادارية وأهمها دواوين الخراج كانت تناط في أكثر الاوقات بأهل الذمة بل استمرت تكتب بلغتهم أيضا الى عهد عبد الملك بن مروان فكانوا يستطيلون احياناً على رجال الدولة وأهل المكانة وربما تحرج منهم أحيانا بعض الفقهاء فوضعوا لهم أمثال تلك الاخبار تنقيصا لهم وحطا من مكانتهم عند الخلفاء والملوك وابعادا لهم عن مناصب الدولة وانما ألجأهم الى نسبة هذه الاخبار الى عمر كونه كان رضي الله عنه قدوة فيما لم يرد بخصوصه شيء في الشرع وهذا بلا ريب بعد من أولئك الوضاعين تناهيا في ضعف الرأي لاسيما اذا علموا باحوال اهل التقى والعدل من الخلفاء ومعاملتهم الجميلة لاهل الذمة كعمر ابن عبد العزيز ومن حذا في ذلك حذوه من الخلفاء وبالاخص الخلفاء من

بني العباس الذين كان أكثرهم متفقها في الدين واقفا على اخبار السلف كالمنصور والمهدي والرشيد والمأمون وامثالهم ممن أتى بعدهم فكانوا يولون كثيراً من شؤون الدولة الى أهل الذمة ويقربونهم منهم لاسيما الاطباء والكتاب بلا أدنى تحرج في الدين وأي حرج في الدين يمنع من مجالسة الذميين وعدم ايذائهم بمثل ذلك الامتهان المشين من كلام لوضاعين ومن وقف على اخبار ماسويه وحنين بن اسحق واضرابهما مع المأمون والمتوكل يعلم هذا . وكذلك كان حالهم مع خلفاء الفاطميين في مصر فكان القبط أرباب الكلمة العليا عند الخلفاء وكانوا حكما نقل المقريزي يتولون دواوين الخراج ويركبون البغال الفارهة ويتصرفون باموال الدولة بل بلغ بالخلفاء ان كانوا يعطون القاب التشريف الخاصة بالعلماء والملوك وهي الالقاب المضافة الى الدين للاطباء والكتبة من النصارى واليهود وما نذكره من هؤلاء (الشيخ موفق الدين ابن البورى الكاتب النصراني) والحكيم (موفق الدين بن المطران) وغيرهما ممن لم تحضرني أسماؤهم الآن :

هذا هو السبب الاول واما السبب الثاني لوضع تلك الاخبار فمنشأه نزوع بعض الامراء الى اجهاد الرعية من مسلمين وذميين بالضرائب ونكث عهود هؤلاء القديمة ولم يروا في الشريعة مخرجا لهم يتوصلون به الى الاستبداد بالرعية وتحميل الذمي فوق ما حدده الشرع من الخراج والجزية كما حملوا المسلم لاسيما والاخبار النبوية آمرة بالوفاء معهم بالعهد والمحافظة على ما لهم من حقوق الذمة والجوار وانهم أهل ذمة الله وذمة رسوله — وهدوا الاغراض هم السبيل بالايماز الى بعض مقربيهم بوضع مثل ذلك الخبر

مقدمة لاستباحة استهانهم ثم اجتهادهم بالضرائب يدلك عليه ماحدث في عهد المروانيين من الاجتراء على استزادة الخراج والجزية في مصر وغيرها من غير حقها كما ستراه مبسوطاً في محله ان شاء الله

على ان سيرة الصحابة ورجال الفتح في الصدر الاول مع أهل الذمة وحدها كافية لدحض أمثال تلك الاقوال الواهية حتى انهم افتتحوا بحسن السيرة وجميل المجاورة والمعاملة مالا يقوى عليه الحسام ، ويخرج عن طوق عددهم القليل بالنسبة لبقية الاقوام (١) وحسبك من أدبهم مع أهل الذمة من الكتابيين ان ما روى عنهم من اخبار الحروب مع الروم لم يستعملوا فيه لفظ الكافرين والمشركين البتة مع انهم كانوا يعبرون عن مجوس الفرس ووثني العرب قبل الاسلام بالمشركين ويقولون عن أولئك: الروم: والقبط: مثلا كانهزام الروم ، وقاتل القبط ونحوه . يؤيد هذا كتب

(١) قد كان المسلمون كلهم كعمر من حيث العمل بمراعاة أهل الذمة ولزوم تجنب ايذائهم بالقول أو الفعل خصوصا عماله يدلك عليه ماذكره في سراج الملوك في حكاية طويلة لاحمل لذكرها هنا وخلاصتها ان عمير بن سعد عامل عمر على حمص وفد عليه مرة فسأله عن أشياء ثم قال له عد الى عملك فقال عمير أنشدك الله ان لاتردني الى عملي فاني لم أسلم منه حتى قلت لذمي : أخزاك الله : ولقد خشيت ان يخصمني له محمد صلى الله عليه وسلم ولقد سمعته يقول (انا حجيج المظلوم فمن حاججته حججته) ولكن ائذن لي الى أهلي: فاذن له فاتى أهله الخ الحكاية

فاذا كان مثل عمير بن سعد يستعفي من عمله لكلمة قالها لذمي وخاف ان يخصمه رسول الله عليها لانه قال « من ظلم ذميا فانا خصمه يوم القيمة » فهل يسوغ العقل ان يؤذي عمر وعماله الذميين بمثل جز النواصي والركوب على الاكف ونحو ذلك من أنواع الايذاء الذي لاشيء بالنسبة اليه قول عمير للذمي : اخزاك الله :

فاللهم انا نبرأ اليك مما كتبه الوضاعون وأخذ به الفقهاء على غير روية ولا تحكيم للعقل

التاريخ التي نقلت الينا أخبار الفتح بالرواية كالطبري وأشباهه، ولو فرض وجود شيء من تلك الالفاظ فيها فانه نزر يسير وهو من حشو النساخ واما كتب المتأخرين او المقلدين فان أصحابها لم يراعوا فيها ما راعاه السلف من الادب وحسن الاداء لما وقر في نفوسهم من التعصب الذي حدث في القرون الوسطى ولم يكن له أثر في النفوس في صدر الاسلام لعلم أهل ذلك الصدر ان الاسلام جاء للتأليف والوئام، لا للتفريق بين الاقوام، وان اختلاف الاديان لا يوجب الفرقة والخصام، لقوله تعالى « لكم دينكم ولي دين » ولان القرآن نطق بان أهل الكتاب أقرب مودة للمؤمنين وذلك في قوله تعالى « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى . ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون » ولهذا سر رسول الله صلى الله عليه وسلم بانتصارهم على مجوس الفرس كما ذكرنا ذلك في الجزء الثاني في حكاية هرقل مع الفرس وهي القصة التي جاءت في قوله تعالى « ألم غلبت الروم » الآية فلتراجع في محلها

هذا ما أردنا بسطه ليكون فيه ذكرى للذاكرين وانما أطلنا الكلام في هذا الباب اظهارا لبراءة عمر (رض) مما عزي اليه وتنبيها لاولى النهى من المسلمين الى ان دينهم يأمر بمجاملة الذميين وينهى عن مخاشنة الكتابيين وان مرض التعصب الذميم انما طرأت اعراضه على الامة تدريجا سيما على عقب الحروب الصليبية وان من آثار ذلك التعصب القبيح ما يلاقيه المسلمون لهذا العهد من ضروب الاهانة والعسف من الدول المسيحية التي حكمت بعض الممالك الاسلامية ولم تراع في حكم المسلمين حقوق الانسانية ولا الدين بحجة الانتقام للمسيحية . والمسيحية والاسلام يبرآن الى الله من ظلم

البشر بعضهم لبعض ولكن ما الحيلة والانسان مهما ترقت مداركه وسمى عقله فانه لا يزال يقاصر دون الوصول الى مرتبة العلم الكامل الذي يجعل البشر كلهم بالاضافة الى وجوب التعاون والاجتماع سواء، وان اختلفوا في المذاهب والاهواء، اذ كل امرئ مسؤول عن اعتقاده عند الله. وانه سبحانه يبين آياته للناس فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها. ولكن: انها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور: اه

باب شبهات النصارى وحجج الاسلام

سوريا والاسلام

سوريا في حاجة شديدة الى اتفاق عناصرها لاسيما المسلمون والنصارى فاذا لم يتفقوا فلا عمران في سوريا ولا حياة. المسلم في سوريا محتاج الى مسالمة النصراني وربما كان هذا أحوج منه الى هذه المسالمة، النصارى في سوريا أجدر من المسلمين بالسعي في الوفاق والمسالمة لانهم سبقوهم الى العلم فكان يجب ان يسبقوهم باحساس حاجة بعضهم الى بعض، ولأن الحاجة اذا لم تكن متساوية في الفريقين فالاضعف يكون هو الاحوج كما أشرنا اليه آنفا. وهذا ما آنسته من أكثر فضلاء النصارى الذين ذاكرتهم في المسائل الاجتماعية

نرى عقلاء المسلمين وطلاب الاصلاح فيهم يكتبون في صحفهم ومؤلفاتهم ما يقنع المسلمين بأن دينهم يرشدهم الى محاسنة أهل الكتاب ومسالمتهم ويفرض عليهم مساواتهم في الحقوق ويحرم عليهم ايذاءهم ويخص النصارى بأنهم أقرب مودة الى المسلمين من غيرهم. وبأن مصلحة البلاد تقضي مع ذلك باتفاقهم في الاعمال الدنيوية وتعاونهم في الكسب. الى غير ذلك من الارشاد. وبينا نحن نطبع تاريخ رفيق بك العظم وفيه ما رأيت (في النبذة السابقة) من الكلام الحسن في أهل الذمة اذا نحن بجريدة (المناظر) ترد علينا بمقالات غريبة عن موضوعها عنوانها (سوريا والاسلام) ينفث فيها صاحبها من سموم التعصب الاعمى والقدح في الاسلام والمسلمين ما يحول دون